الوضع التشكيلي بالمغرب 78 ـ 79 : خطوط عامة

اذا كانت السنة الماضية (77 ـ 78) قد شهدت تحركا تشكيليا قويا ، بالمغرب ، على صعيد الفنانين كافراد ، او على صعيد التجمعات ، وخاصة « الجمعية المغربية للفنون التشكيلية » ، التي انجزت تجربة مدينة اصيلا ، فان هذه السنة جاءت باردة ، يحكمها الفراغ الصامت ، والتشتت غير المفاجيء ، باستثناء ما شهدته بعض قاعات العرض من تقديم اعمال مغربية محدودة او غير مغربية ، كما هو الحال بالنسبة لقاعة « العمل » بالدرجة الاولى .

صراع صامت اتى كنتيجة لما ترسبت عنه تجربة اصيلا ، هذا مؤكد ، لان هذه التجربة الفنية جدا ، اثارت جدلا عريضا لم يدون اغلبه بعد ، بقي شفويا ، او ذا طابع صحفي سريع . تجربة اصيلا كانت في بدئها تظاهرة فنية تريد لنفسها ان تعيد النظر في طبيعة الممارسة التشكيلية بالمغرب ، من حيث علاقات الفنانين فيما بينهم ، ثم طبيعة العمل التشكيلي في المرحلة الراهنة بالمغرب ، وضروب وسائل الاتصال والمشاركة مع البيئة والجمهور . كانت التظاهرة ذات طموح متشعب ، وهو طموح شرعي ، وقابل للتحقق والاستمرار ، ولكن البدء غير المنتهي ، اذ تحولت هذه التظاهرة الى سوق استهلاك ذهب ضحيته اغلب الفنانين ، وربما التجربة نفسها . ولذا كان التشتت داخل « الجمعية المغربية للفنون التشكيلية » غير مفاجيء ، وبالتالي توقف النشاط طيلة هذه السنة . هل هو غياب مفتعل ؟ . اظن ان الحساب كان طويلا ومرهقا ، وبالتالي فاصلا بين حدين . المهم ان الجمعية دخلت مرحلة الصمت .

امام هذا الوضع نجد « جمعية التشكيليين المغاربة » تحرق جميع مكتسبات العمل التشكيلي بالمغرب ، فتنظم مع « نادي البحر الابيض المتوسط » لقاء « فنيا » ، جرى منظموه باندفاع طائش لخدمة مصالح لا علاقة لها بالهم التشكيلي الذي يراودنا ، بطبيعة الحال لا يمكن ان نعطي اهمية بالغة لما قامت به هذه الجمعية ، لانها في اصلها تجمع بعيد عن البحث الفني ، همه الشهرة ، والالقاب ، والاتصال مع الاوساط الباريسية ، من غير ادراك لشروط هذه العلاقة .

يحتاج الحديث عن لقاء « نادي البحر الابيض المتوسط » الى محاسبة طويلة النفس ، ونستعمل هنا كلمة « محاسبة » ، لان الوضع الثقافي ، وطنيا وعربيا ، يضطرنا لنكون واضحين، ومع ذلك لن نتمادى في كشف الاوراق الخفية لجملة ممن يدعون الممارسة التشكيلية ، لان اعمالهم شاهدة على قصور وعيهم الفني ، وعلى حالتهم النفسية المتارجحة بين الاضطرابات والشك في عملهم . في نفس الوقت سنترك موقفهم « الوطني » جانبا ، لانه لا يحتاج الى تعليق.

على مستوى المعارض الفردية تلقانا اعمال القاسمي ، الحساني ، بورقية ، بنعاس ، ربيع ، المليامني ، بلامين السلاوي في المحمدية ، وبعدها معارض موزعة بين قاعات الفنادق ، ودور الشباب ، وقاعات وزارة الثقافة (باب الرواح) ، ثم تجمعات صغيرة في بعض المدن (تطوان كنموذج) ، ما هو الجديد في اعمال هؤلاء ؟ قد نكون مبالغين ، وغير موضوعيين ، اذا نحن اصبحنا نطالب الفنان بالجديد في كل عمل يقدمه ، لان الطفرة ، والتميز ، يحتاجان الى فترة زمنية اولا ، ورغبة صادقة في تحقيق التجاوز ثانيا ، ووعيا فنيا لا مندوحة عنه . بصفة عامة لم نفاجا كثيرا ، ولم نصطدم باعمال خارجة عن مالوف هؤلاء الفنانين . القاسمي هو الذي تشعر معه بالحاحه على البحث ، وفق شاعرية ملحمية تتدفق باستمرار . ويبقى الحساني باحثا في اطار التجربة الباريسية ، مع اعتماد التجميل اللوني ، وانحصاره في افق يتاتى من الخارج دائما . بورقية مستمر ، ولكن التكرار يطغى على البحث . بنعاس يعيش حالة نفسية يحاول ان يمزجها بحالة فنية ، وربيع في تجريديته بين المهادنة والدهشة والمليامني باحث يهدونه عن قوانين للعمل ، بينما بلامين غارق في شكلانيته الشفافة ، والفارقة في حلم طفولي يكاد ينفجر من صمت المساحة وتساكن الالوان ، ويقفز السلاوي على تجربته في النحت ، فيقدم عملا يستقل فيه مادة مشكلة في اصلها ، وهي جذور الاشجار ، هذه التجربة تثير تساؤلات بطبيعة الحال .

لن نطيل ، فنحن هنا بعيدون عن تقديم تصنيفات ، ستبعدنا ، يقينا عن طبيعة هذه الكلمة القصيرة . ما يلاحظ بالتاكيد هو ان رجة ما لم تحدث ، وان المدهش فعلا غاب عنا (لا ياتي المدهش دائما) ، كنا ننتظر حضور اسماء اخرى ، ويظهر ان الامر لا يحتاج الى اصدار احكام ، بقدر ما يحتاج الى الملاحظة كمرحلة اولى .

اتتنا المفاجاة هذه السنة من قاعات العرض ، وخاصة « المعمل » ، مع معرض ايتيل عدنان ، معرض الفنانين اليوغسلافيين ، معرض آدم حنين . ربما كانت هذه المفاجأة المباغتة هي اقوى علاقة تشكيلية في هذه السنة . مع اتيل عدنان دخلنا المتاه ، سلسلة من الكتابة المتعددة المستويات ، نصا يحرق العين ، ويفتح مسام الجلد ، يخترق النخاع الشوكي ، ويجلسك بين الوان الضحك والبكاء .

كانت للفنانين اليوغسلافيين رجتهم الهادئة ، رسوم فطرية ، وتجريد هندسي ، وتعبير خطي ، كلها ممتزجة في حلم يستحيل القبض عليه بسهولة ، ورؤية انسقية يشدها الانسياب والعنف . مع هذه الاعمال اكتشفنا وجها آخر للغرب . آدم حنين هو الاخر مدهش ببساطته ، وغنائيته ، وبحثه عن الجذور ، في الطبيعة والانسان ، من خلال ماض سحيق (الفراعنة) ، وحاضر ساخن ، برموزه والوانه النباتية وورق البردي .

ربما كانت هذه الوجوه الثلاثة (لبنان – يوغوسلافيا – مصر) محركة اكثر من غيرها هذه السنة لموسمنا التشكيلي ، ولا شك انها طرحت على الفنانين والمهتمين سؤالا ، ليس بالضرورة معرفة حجمه الآن ، ولكنه بالتاكيد يعارض السكون الذي لمسناه في اغلب الاعمال المغربية المعروضة هذه السنة . هذا السؤال المربك ، المحير ، هو ما نحتاج اليه ، سؤال منبعث من داخل العمل التشكيلي وخارجه . ولكن هل طرح السؤال ممكن دائما ؟

لم يتسع الحوار هذه السنة حول الوضع التشكيلي ، وهذا طبيعي ، مع نوعية النشاط الثقافي بصفة عامة بالمغرب طيلة هذا الموسم . ومع ذلك يجب الا ننسى مبادرة جمعية « الانطلاقة الثقافية » بالناضور . ربما لاول مرة شاهدت هذه المدينة معرضا لجماعة جيدة من الفنانين المغاربة ، ولا شك أنه كان فرصة الاتصال بالجمهور في هذه المنطقة النائية عن مراكز النشاط الثقافي . ان هذا يدخل في اطار تحرك المدن الصغيرة ثقافيا ، وهو تحرك ايجابي يعطي العمل الثقافي بعدا وطنيا ، يكسر دائرة تمركز المثقفين الفنانين ، ويسمح بتوسيع مجال التواصل والحوار .

ويبقى استمرار صدور « الاشارة » علامة بارزة في العلاقة التي بدات بين المثقفين والفنانين ، وهي من غير شك تحتاج الى تجاوز ترسبات الماضي ، وضيق افق العمل الذي لم تعد تطيقه وضعية ثقافتنا الوطنية الديمقراطية .

ماذا نريد من هذه الكلمة ؟

ببساطة نقول اننا امام تحول في الوضع التشكيلي ، والوضع الثقافي الوطني بصفة عامة ، ولكنه بطيء ، تعرقله مثبطات ذاتية وموضوعية : انشقاقات ، خلافات ، عدم تبلور وعي نقدي متكامل ، ثم الوسائل والامكانيات ، تجهيز ، وتحويل ، على مستوى انشاء المؤسسات التشكيلية ، والدفع بالموجود نحو اهتمام اكثر . ليست هذه الاسباب شكلية ، ولا عابرة .

نرجو ان يكون هذا الصراع الصامت ، وهذا التشتت غير المفاجيء ، قادرين على تجاوز الطاريء ، من خلال التشبث بالمفهوم الوطني الديمقراطي للعمل التشكيلي بالمغرب ، في التحامه مع التجربة الطلائعية في بعض الاقطار العربية ، والعالم الثالث ، ولن يتم هذا الا في اطار تكتل قوي ، واع بضرورة الصراع الفني ، الذي هو جزء من الصراع الايديولوجي الذي تخوضه ثقافتنا التقدمية التي اخذت ملامحها الجديدة تتجه باصرار نحو تحقيق هويتها المتميزة .

محمد بنيس

● نـدوة ابـن رشـد

لنقل ان كلية الاداب والعلوم الانسانية (الرباط) قد فتحت بابا حن اليه جميع المهتمين والمثقفين والباحثين بالمغرب . هذا الباب هو الندوات العلمية الكبرى التي ابتدات في السنة الماضية في ندوة ابن رشد وحاولت أن تتقدم اكثر في ندوة ابن خلدون . ما يجعلنا نؤيد هذه المبادرة الثقافية هو حكم المتتبعين لها من بين الطلبة واساتذة الكلية بمختلف الشعب والمثقفين الذين توافدوا على الرباط . كان الجميع متعجلا ومتلهفا حتى ضاقت قاعة ابن خلدون بجمهورها المعتاد ، فلم يجد الحاضرون امامهم غير مدخل الكلية ومساحتها متحملين تقلب الطقس من شدة ريح ومطر اتى هو الآخر في نفس ايام ابن خلدون ، لن نقم بتحليل كامل